

Les saints et les zawias-s dans le faubourg de Bab Souika

Nizar AZAIEZ
نزار عزيز

الأولياء والزوايا بربض باب سويقة

Pour sa première livraison en arabe, la rubrique RECHERCHE EN COURS accueille une contribution de Nizar AZAIEZ sur le thème de la religion populaire et des formes contemporaines de l'islam vécu.

Nizar Azaïez a présenté en octobre 1992, pour l'obtention d'une maîtrise et dans le cadre de l'Institut Supérieur d'Animation Culturelle, un mémoire intitulé : "Zawia-s et marabouts dans le faubourg de Bab Souika". Il livre ici les conclusions de cette première étude sur la présence et les fonctions des lieux de la sainteté dans un tissu urbain ancien.

Le maraboutisme, forme populaire du mysticisme, est en Tunisie un phénomène d'origine urbaine (XIIIe siècle) étendu par la suite aux sociétés rurales. A cet égard, le faubourg de Bab Souika se présente comme un milieu favorable à l'étude de l'islam populaire en tant qu'espace citoyen alimenté depuis sa fondation par l'exode rural, de par la multiplicité de ses sites, mais aussi du fait de la conservation de leurs fonctions traditionnelles (soins thérapeutiques, hébergement, aides et dons aux indigents, etc) et de leurs rituels (dhikr, hadra).

L'historique de l'implantation des saints et de l'élévation des sanctuaires permet alors de rendre compte de la densité et de la large répartition des zawia-s, dont la création a accompagné l'extension démographique et spatiale des quartiers et a favorisé l'incorporation par les populations migrantes des normes de la vie citadine.

La pérennité du phénomène maraboutique, dans un espace pourtant "encerclé" par la ville moderne et exposé à ses influences et ses mutations, est attestée par l'apparition de formes nouvelles d'occupation des lieux (habitats, commerces, cafés) sans que celles-ci n'entraînent la disparition des anciennes fonctions. Ne faut-il pas y voir un signe de l'existence d'un univers mental non conflictuel permettant interférences culturelles et mixité des pratiques ?

يستقبل ركن بحوث بصدد الانجاز مقالا لنزار عزيز حول موضوع اشكال الممارسة الشعبية للاسلام في باب سويقة. نزار عزيز قدم رسالة لنيل اجازة المعهد العالي للثقافة بتونس تحت عنوان الاولياء والزوايا بربض باب سويقة وهو يقدم للقراء خلاصة من هذه الدراسة الميدانية ويعطي فكرة واضحة حول تواجد ومكانة الاولياء في الفضاء الحضري القديم.

الأولياء والزوايا بربض باب سويقة

بقيت ظاهرة الأولياء سنين عديدة رهينة التساهل، لكونها أصبحت اليوم تشكل ميدانا أساسيا للعديد من الدراسات الاجتماعية والأنثروبولوجية. وهذا الاهتمام المتزايد بالظاهرة الدينية الشعبية لم يكن محض الصدفة، وإنما كان وليد تحولات اجتماعية، أدت من حين إلى آخر إلى انتعاش هذه الظاهرة ليس بالآواسط الريفية فحسب، بل وحتى بالمناطق الحضرية، حيث برزت أحيانا تلقائية، وأحيانا أخرى مستقطبة أحيائها الرجوع إلى التراث.

ربض باب سويقة كنموذج لدراسة ظاهرة الأولياء

تعود دوافع اختبارنا ربض باب سويقة كميدان لدراسة ظاهرة الأولياء والزوايا، لكونه يشكل ميدانا خصبا للبحث في أبعاد هذه الظاهرة، وللكشف عن حقائق الدين الشعبي. وإن سجلت هذه الظاهرة فتورا في إشعاعها لعدة سنين مضت، فإننا اليوم نراها تستعيد نسبيا وطاقمها الروحية والتقليدية التي أفضت عليها قديما مكانة مرموقة في المجتمع. ويعتبر الربض منطقة حضرية من تونس العاصمة تتعدد الزوايا بكامل انحائه ويولبها الأهالي عنابة مفرطة حيث تكتسي كظاهرة اجتماعية أبعادا جديدة ومميزة في تكيّفها مع التحولات الاجتماعية والحضرية خاصة وأن المدينة العصرية قد طوّقت المدينة الوسطى وربضها من جميع الجهات وأفقدها إشعاعها القديم. إن انتشار الزوايا بربض باب سويقة ومواصلة الاعتقاد في الأولياء شاهد على ثبات المؤسسة التقليدية القديمة في وسط حضري شمسي تميز طيلة قرون بتحولات اجتماعية وحضرية معقدة.

وإن كانت هذه التحولات لم تؤد إلى اندثار ظاهرة الأولياء ومؤسستها التقليدية بالربض فإنها قد عكست لنا التناقض بين الثقافة الحديثة والثقافة التقليدية، وأبرزت إشكالية استقطاب هذه الثقافات للفضاءات بين التحديث والإصالة.

وإذا ان أصول ظاهرة الأولياء وتأسيس الزوايا في هذه الجهة قد ارتبط بتاريخ نشأة الربض، ارتأينا في تحديد منطقة الدراسة أن نلتزم بالحدود التاريخية لربض باب سويقة وهي تلك التي رسمتها الأسوار المندثرة، أي الأسوار التي كان القسم الأول منها يفصل بين "المدينة الوسطى" والربض، والقسم الثاني منها كان يحيط به ويشرف على المناطق الريفية. أما الجهة الشرقية للربض وحيث ثبت تاريخها عدم إقامة سور، فقد اعتبرنا الحد نقطة الاختلاف بين النسيجين العمرانيين: التقليدي والعصري. ولئن شكلت أبواب الربض وأبواب "المدينة الوسطى" - المشرفة عليه - في القديم المنافذ الوحيدة لاجتياز ربض باب سويقة أو لمغادرته، فإنها بقيت اليوم المنافذ الرئيسية للانهج والشوارع ذات المحبوبة القصوى، إضافة إلى المنافذ الحديثة التي أنشئت بعد إزالة الأسوار للضرورة التأتبية عن السيرورة الحضرية، وبعضها لا يقل أهمية عن الانهج الرئيسية القديمة من حيث المحبوبة والنشاط وهذا ما يعطي أهمية بالغة لربض باب سويقة كآطار لدراسة ظاهرة الأولياء من حيث أضاء خصوصيات مميزة على البنية الاجتماعية للربض والتي تنعكس في التفاعل مع المؤسسة التقليدية على مستوى الاعتقاد والطقوس والممارسات.

الولاية الروحية والتصوف الشعبي

من المؤكد أن الكشف عن أبعاد ظاهرة الأولياء الصالحين وانتشار الزوايا في المحيط الحضري بباب سويقة يتطلب وضع الظاهرة في إطارها العام الذي نشأت وتطورت فيه وتحديد علاقتها بالتصوف وفق المسار الذي تتوخاه بين الطرقية والدين الشعبي. فالتصوف بعد أحد المبادئ الأساسية التي تركز عليها شخصية الأولياء الصالحين وتحدد ملامحها. ويتضح ذلك خاصة منذ القرن السابع الهجري حيث انقسم التصوف إلى تيارين: تصوف فلسفي يعمد أصحابه إلى مزج أذواقهم الصوفية بانظارهم العقلية، وتصوف عملي اختص به أصحاب الطرق. وكان الولي سيدي أبو مدين المتوفى سنة 1224 م هو أول من نشر التصوف المشرقي بين أهالي أفريقية بعد أن تلقى تعاليم تصوف الغزالي المعتدل. لكن الولي سيدي أبي الحسن الشاذلي (1197-1258 م) هو الذي اكتسب التصوف المغربي الصيغة الطرقية ونشر الحركة الصوفية بتونس العاصمة ومن ثم في كامل أنحاء البلاد، فكان شيوخها عبارة عن أولياء صالحين شيدت لهم الزوايا أينما استقروا. ويعود نجاح "الشيخ الشاذلي" في نشر طريفته بين الأهالي لكون نظرياته لم تكتسب صيغة إبداعية معقدة، وجدلية كانت بسيطة.

إن هذا المنحى الذي توخته الحركة الصوفية نحو التصوف الطريقي أو التصوف الشعبي والذي ساد في تونس خلال القرن 13 م ميز الولاية الروحية بخاصيتين: شخصية الشيخ الصالح التقى وأظهاره للكرامات. فالصوفي الذي أبدى تقواه وتزدهد واختلف عن عامة الناس واكتسب بركات وكرامات فإنه يرتقي إلى درجة "الولاية" ويعتبر وليا صالحا و"إنسانا أعلى" يخافه الناس ويتعلقون به في آن واحد. وحين يصل إلى هذه الدرجة في طريق التصوف يعتزل الناس ومشاعل الحياة في إحدى الخلوات، ثم يظهر للوجود بعد مدة ويستقر في مكان حيث يؤسس مقاما ابن يتلقى زيارات المعتقدين فيه ويأوي تلامذته واتباعه ويصحب هذا المقام زاوية تحتوي فيما بعد على ضريحه وتلقن فيه طريفته.

غير أنه في أغلب الأحيان، ويمجرد أن تلاحظ الفئات الشعبية على شخصية الولي خصوصية في العبادات وطقوسا روحية مميزة في السلوك للحماد مع الذات الإلهية، فإنها تلحقه إلى أعلى مراتب المتصوفين في الولاية الروحية. وهذا لا يعني أنه يشترط في شخصية الولي أن يكون لها قواعد أو مبادئ في التصوف ولا حتى معارف علمية. إن التفاوت في المستوى الثقافي للأولياء يبدو واضحا، إذ كان البعض قادرا على تلقين التعاليم الصوفية وتدرسي جميع فروع العلوم الدينية بينما كان آخرون ذوي ثقافة بسيطة وأحيانا جهلاء والغريب في الأمر أن درجة الولاية الروحية لا يحضى بها هؤلاء فحسب، وإنما يبلغها أحيانا "مختل المدارك العقلية" بعد أن يقر الناس باكتسابه للكرامات والقدرات الخارقة للعادة التي يمنها الله بها وترفعه عن بقية الناس. وهذا الاعتقاد بقي رائجاً بين الأهالي حتى عصرنا هذا، فانتسعت دائرة الأولياء الصالحين في الآواسط الريفية أو الحضرية المعتبرة، والذاكرة لا تتعدى بها كثيرا في التاريخ فلا يزال العديد من معاصري الولي سيدي عمر الفياش بربض باب الجزيرة أو شبيهه سيدي الهيلة بربض باب سويقة يذكرون زياراتهم لهما ومرآجل الطوقس التي تقام في الزاويتين. ولقد صاحب رواج الحركة الصوفية بين الأهالي في تونس تطور الطرق الصوفية التي انتشرت في شكل حركات شعبية متخذة من الزوايا

مسرحا لنشاطها وإسقط إشعاعها. وأصبحت هذه الطرق منذ القرن 19 م تلعب دورا أساسيا في تطير الاهالي الريفيين او الحضريين وتوجيههم وبالتالي أصبحت تستجيب لحاجيات الاهالي الروحية والمادية.
فالاهالي يجدون في ممارسة طقوسهم الروحية وعباداتهم تحقيقا لتوازنهم النفسي، والطرق هي التي تضمن سير هذه الطقوس داخل مؤسستها ولذلك يبدي الاهالي تعلقا باصحابها، وهذا التعلق يزداد افراطا كلما ساهمت الطرق في سد الحاجة المادية للاهالي.

التطور الحضري والاجتماعي والسياق الروحي

لقد ميزت ظاهرة الاولياء وتعدد الزوايا بريض باب سويقة خصوصيات عديدة ومعقدة واكبت التطور الحضري والاجتماعي للريض. لذلك كان من الضروري ان تربط الظاهرة باطارها الخاص فنعرض الظروف الاجتماعية والحضرية التي نمت فيها وتكثفت معها ومن ثم نحدد سباقها الروحي من حيث الادوار والوظائف التي اكتسبها الاولياء والزوايا ومدى انعكاسها على الحياة الاجتماعية.

تعود نشأة ريض باب سويقة الى الهجرة الهلالية خلال القرن 11 م، حين نزح الاهالي الريفيون من اراضيهم فرارا من خط الاعراب المنتشرين في البلاد واستقروا امام اسوار " المدينة الوسطى، ومن الصعب جدا تحديد الاصول الانتية لسكان الريض بدقة خاصة وانه شكل ملجأ لمختلف الاجناس على مر العصور. لكن من المؤكد ان السكان الاوائل كانوا خليطامن السكان الافارقة الاصليين واجناسا مختلفة من المشرق وقدت ايام الفتح الاسلامي الاول. ثم انضم اليهم اللاجؤون من صقلية و المرابطون، كما استقر بعض الاعراب من قبائل البدو الهلاليين بالريض. ومع غزو الموحدين واستحواذ الحفصيين في القرن 13 م على السلطة، اختلط اهالي الريض بقبائل مصمودة وهنتاتة البربرية التي شكلت جيوش القادة الحفصيين والموحدين وازدادت الى هؤلاء ساهمت الوفود الاندلسية المهاجرة في ارتفاع عدد سكان ريض باب سويقة.

ومنذ القرن 19 م اصبح ريض باب سويقة يضم اسرا حضرية عريقة ذات مركز اجتماعي مرموق، وعلى سبيل المثال نذكر العائلات ذات الاصول الاندلسية وتلك التي تنتمي الى اجداد من الاولياء الصالحين او بعض اسر العلماء والتجار الاغنياء. كما استقر بالريض العديد من ضباط قصر البايات وبعض الاسر الحاكمة كالوزير يوسف صاحب الطابع الذي جعل من الريض منطقة حضرية تضاهي المدينة الوسطى بعد ان اقام مركبا دينيا تعليميا في حي الحلفاوين والى جانب النخبة الاجتماعية كان يعيش في الريض اهالي ينتمون الى مستوى اجتماعي بسيط وكان اغابهم نازحين من الأرياف، وقد انعكس ذلك على شكل العمران وعلى نظامه فنشأ نط من السكن الشبه الريفي على حدود الريض. كماادت إقامة الريفيين مؤقتا أو نهائيا الى انتشار العادات الريفية وارتبطت اغلب المهن بالنشاط الريفي والزاعي، ولقد ساهم إشراف الريض على الأرياف في تقاوم هذه الأوضاع.
وحيث إحتلت المدينة العصرية مساحات الأرياف وأحاطت بالريض والمدينةالوسطى أفقدتهما إشعاعهما، وأصبح الريض منطقة حضرية شعبية، ينتمي أغلب أهاليها إلى مستوى مادي بسيط، وأرتفع عدد سكانه إثر موجات النزوح الإنتتالية للأهالي الريفيين والتي تواصلت من فترة الإستعمار حتى حدود السبعينيات من هذا القرن. وهكذا حدث تحول كبير في الوظائف الأصلية للنظام الحضري السائد من ذلك أن المساجد والزوايا خصصت للسكن، وبقيت العادات والتقاليد الريفية راسخة في بعض أحياء الريض، وسجل تذبذب بارز في تكيف الفضاء الحضري الجديد مع وظائفه الأصلية أو في إنسجام الوظائف الجديدة مع الفضاء الحضري القديم.

ففي هذا الوسط الحضري الشعبي لاقت حركة الأولياء الصالحين رواجاً بين الأهالي وانتشرت الزوايا في كامل أنحاء الريض حيث لاقت مناخاً ملائماً للقيام بنشاطها. فمنذ القديم كان أهالي العاصمة عرضة للحروب والابونة والمجاعات مما جعلهم يتعلقون بالزوايا إذ وجدوا في تمسكهم بالطقوس والمعتقدات ما يخفف من وطأة مصاعبهم، كما انها أمنت للبعض حاجياتهم المادية من مأوى وطعام ولباس، وغالبا ما مكن اقتحام وسط الطرق الدينية بعض الاهالي من تحقيق الامان نهائيا فكانت الزوايا تلبى الحاجيات المادية والنفسية لهم إضافة الى الدور التعليمي التي تضطلعها أحيانا. ولقد مكن الانتساب الى الاولياء الصالحين بعض الافراد من الحضي بمكانة مرموقة في المجتمع وكانت أرقى كلما عاد النسب إلى أصل شريف وهؤلاء الأحفاد كانوا قادرين على وراثة كرامات أجدادهم وقدراتهم حتى أنهم تمتعوا أحيانا بعناية السيط الحاكمة.

توزيع الزوايا بريض باب سويقة

لقد أشار العديد من المؤرخين إلى كثرة عدد الزوايا والأولياء بمدينة تونس العتيقة ولا زالت دراسات المختصين في علم الآثار والتاريخ تثبت ارتفاع هذا العدد وتضاعفه رغم صعوبة البحث الناجمة عن التطور الحضري الذي أدى إلى إندثار العديد منها أو نسيان الذاكرة الشعبية لمواقعها.

والدراسة الميدانية التي قمنا بها في ريض باب سويقة مكنتنا من إدراج قائمة للزوايا، بلغ عددها 103، وبدون شك فإن إعادة التحري ستؤدي إلى ارتفاع هذا العدد. ولقد تمكنا بفضل هذه القائمة من رسم مواقعها على الخريطة الطبوغرافية للريض، واستنادا إلى الذاكرة الشعبية أضفنا مواقع الزوايا التي وقعت وإزالتها، حتى تستطيع فهم أبعاد التوزيع الجغرافي للزوايا.
ان إنتشار الزوايا قد مسح جميع مناطق ريض باب سويقة بحيث أصبح لكل حارة تقريبا ولي أو زاوية خاصة بها، وأحيانا نجمع بالحارة الواحدة أكثر من زاوية والملاحظ أن هذه الكثافة تعم كامل الريض لكنها في بعض المناطق تكون أكثر حدة. وتعود هذه الكثافة إلى أن الريض شكل امتدادا حضريا لمدينة تونس، فكان تعمير الريض على حساب بعض المقابر، بحيث أزيلت القبور وأبقى على أضرحة من أعتقد في صلاحهم وكراماتهم كأولياء صالحين وشيدت حولهم الزوايا. وإضافة إلى ذلك، لعبت الأصول الانتية للأهالي دورا هاما في أحداث هذه الكثافة. فقد لاحظت بوضوح في المناطق التي استقرت بها عائلات ذات أصول أندلسية ونحن لانجهل مدى العناية التي أولها الأندلسيين للأولياء الصالحين. بالنسبة للاهالي الوافدين من الأرياف فان تأسيس الزوايا

مكتهم من تشريع استقرارهم سلميا في الرض ومن إلتحام الوسط الحضري الجديد أو عالم البلدية. وربما تمكنوا أحيانا من حيز مكانة مرموقة في المجتمع وما أن الرض كان منطقة عبور من داخل البلاد والأرياف نحو المدينة الوسطى، أسست الزوايا فيه وعلى حدوده تلبية للضرورة الإجتماعية المتمثلة في جعلها أمكنة لإيواء المسافرين وعابري السبيل وأحيانا ماوى للمتشردين والفقراء.

ولقد تأسست الزوايا حول منافذ الرض وعلى مشارفها لأنها صبغة دفاعية في شكل رباطات للحراسة ولصد الهجمات الأجنبية. والمعلوم أن الأرياض شكلت في القديم حزاما أمنيا "للمدينة الوسطى". كما كان للطرق الدينية الأثر الكبير في إنتشار الزوايا التي شكلت مسرحا لنشاطها، والضرورة السياسية حتمت وجودها وانتشارها برض باب سوقة حتى تتمكن من السيطرة على الأهالي في هذا الوسط الشعبي خاصة وأن السلط والأوساط الدينية الرسمية كانت عاجزة عن ذلك. وإضافة إلى ذلك فإن الإنسان الشعبي عبر دوما عن حاجته لتحقيق توازنه النفسي في كنف المعتقدات والطقوس بحيث كان من السهولة أن يفتحوا إلى مرتبة الولاية الروحية من رآوا فيه الصلوحيات لذلك وأن يؤسسوا الزوايا التي تضمن لهم تحقيق هذا التوازن النفسي والقيام بطقوسهم وعاداتهم الروحية.

وصف الزوايا

قبيل الاستقلال كانت الزوايا تعد ضمن الاملاك المحبسة، وهي بدورها حبست لفائدتها بعض الاملاك التي ساهمت في صيانتها. لكن بعد أن حلت الاحباس، وزعت هذه الزوايا على من يعود إليه حق إرثها او على الاهالي القاطنين بها، وقد ضم البعض الاخر إلى املاك الدولة أو قرط فيه بالبيع الى الخواص.

ان هذه الوضعية الجديدة التي تعرضت لها الزوايا قد ادت إلى تغيير وظائفها وقضاءاتها الأصلية، واكتست وظائف جديدة تنحاش مع الواقع الحضري المعاصر، من ذلك ان العديد من الزوايا لوظائفها الروحية وتخصيصها كليا للسكن، جعلها تتطور وتتأقلم مع متطلبات الصبورة الحضرية. فأحدثت عليها تغييرات عمرانية. وأحيانا ازبلت وأقيمت محلها اقامات سكنية تتوفر فيها ضروريات العيش العصرية وبهذه الكيفية أصبح من الصعب التمييز بينها وبين منازل احياء الرض. ولقد كانت ظروف الاقامة في الزوايا، بالنسبة للعائلات ذات الدخل الضعيف مغايرة تماما خاصة إثر فقدانها للدخل المنتظم المتأتي من الاملاك المحبسة للزاوية والمخصصة لعمال الصبانة. فاصبحت غير قادرة على إصلاح الخراب الحاصل في المباني العتيقة، ولم تتمكن حتى من إنجاز اسط القواعد الصحية بها. وعادة تبرز بعض مظاهر الأصابة العمرانية في هذه الزوايا لكن الخراب قد لحق معظمها.

والجدير بالملاحظة ان الزوايا التي حافظت على اصالتها العمرانية وكانت اقل عرضة للخراب وتنطلب ترميما خفيفا، هي تلك التي حافظت على نشاطها الاصلي ويؤمها الزوار باستمرار. وهذه الزوايا غالبا ما تكون خاضعة لأملاك الدولة وتخضى بأشراف رسمي، او تكون على ملك عائلات تستقر بها ولها قرابة دموية مع ولي الزاوية او صلة ولاء له مكنت من من وراثته كراماته او اكتسابها. فيتقدم لها الزوار بهبات تساهم بالاساس في صيانة الزاوية والحفاظ على اصالتها المعمارية. اما بالنسبة للزوايا التي طرأ عليها تغيير كبير واصبحت منازل للإقامة، فان ذلك يرجع إلى تقصير القيام بتغييرات توفر ظروفا حسنة لضروريات الحياة الحضرية، التي عادة ما افتقدت في الزوايا ذات النمط المعماري التقليدي العتيق. كما ان أعمال الترميم بالنسبة للبنات العتيق تكون متعبة ودائمة، وربما تكلف انفاقا باهضا، في حين ان البناء الجديد يجنب الاتعاب والمصاريف، وهذا ما يفسر فقدان تلك الزوايا لمعمارها الاصلي.

لكن نلاحظ ان بعض الاهالي القاطنين بالزوايا قد اولوها عناية خاصة، فتحملوا اعباء مصاريف الصبانة، وحافظوا على العراقة العمرانية للزاوية. والمؤكد ان هؤلاء الاهالي يكونون احتراما كبيرا للاولياء الصالحين. وبطبيعة الحال فان الاعتناء بضريح الولي، وخلق ذلك الطابع القدسي من حوله ضرورة يشعر بها ساكنوا الزاوية، وهي واجب ازاء هذا الولي الذي يسدل عليهم رحمته ويكفهم بعنايته. وهم يعتقدون ان ترك الواجب تكون عواقبه وخيمة.

الحياة الروحية بالزوايا

من بين 103 زاوية برض باب سوقة حدّدنا حوالي ثلاثين زاوية لا تزال تحافظ على وظائفها الروحية وانشطتها التقليدية. ولقد اتسمت هذه الزوايا بازواجية في الوظائف اذ انها جمعت وظائف مختلفة تفاوتت من حيث الاهمية. فأحيانا يتكثف فيها النشاط الروحي بينما تنقلص البقية. وأحيانا اخرى تغتر وظائفها الدينية امام طغبان الوظائف المحدثة فيها كالتجارة او السكن في حدود الاسرة الضيقة.

وقد يقتصر النشاط الروحي على اداء بعض الطقوس البسيطة المتمثلة في ايقاد الشموع امام الضريح ايام الجمعة او اثناء المراسم الدينية. وهذه الطقوس تندرج ضمن الواجب الاعبادي للعائلة القاطنة بالزاوية. وعادة ما يتجاوز النشاط هذا الاطار الضيق في بعض الزوايا، فتضاف الى هذه الطقوس زيارات الاهالي الذين لا يزالون يحترموا وولاة للاولياء ويترقبون وعودهم. ورغم ان الزاوية معدة للسكن فان اصحابها يستقبلون الزوار بدون ممانعة. وكلما كان قاطنوا الزاوية من احفاد الولي الصالح الا وتضاعف النشاط الروحي نتيجة تفانيهم في العناية بمقر جدهم فيجتهدون في تنظيم الطقوس من الاحتفالات والزيارات وانشاد للذكر والشعائر ومواعيد الاستسقاء. كما يكن لهم الاهالي الاحترام ويشقون في خدماتهم ولا يبخلون عليهم بالهبات وغالبا ما يطفى النشاط الروحي في الزوايا التي تجمع بين وظائف دينية متعددة فتحتوي على مسجد، وقاعة لتلاوة الذكر وكتاب. ويكون النشاط الروحي اكثر انتظاما كلما انتمت الزاوية الى احدى الطرق الصوفية. فمن الزوايا التي احتوت على نشاط روحي كثيف ومنظمة نذكر زاوية سيدي الحارثي قرب بطحاء الغلالين وهذه الزاوية تنتمي الى الطريقة العيساوية. وبعد يوم الجمعة موعد الزيارة حيث تتم تلاوة الذكر والشعائر وتقام الحضرة وتعاويد الاستشفاء وتقدم الهبات والصدقات. والطقوس

التي تقام في الزاوية تعتبر شكلا من اشكال التمارين الصوفية حيث يكون الرقص على الاتغام والتماوج على ايقاع الذكر لتخليص الجسد من الضغوط الروحانية، ويكون الترتيل والتلاوة محاولة لتحرير النفس من الضغوطات المادية والمعنوية. وزاوية سيدي الحلفاوي الواقعة بباب الحضراء تتميز كذلك بانتظام النشاط الروحي وبغدا الى هذه الزاوية اثناء زيارة يوم السبت الاسبوعية زوار كثيرون، يدفعهم الى ذلك الاعتقاد في الكرامات والقدرات الخارقة للعادة التي ورثها احفاد الولي سيدي الحلفاوي والمتمثلة في شفاء الامراض بالكي. وتسود اثناء هذا النشاط حيوية غير اعتيادية بالزقاق، فتهرز علاقات اجتماعية واقتصادية محدودة ووقتها تنتهي بانقضاء موعد الزيارة.

اما زاوية سيدي احمد التيجاني الواقعة بجهة باب الحضراء فهي تعتبر مركبا دينيا جمع اضافة الى قاعة الزاوية مسجد "خطبة" وكتابا. ولقد تمسكت هذه الزوايا بمبادئ الطريقة التيجانية وعني فيها بتلقين تعاليمها. وقد اقتصرت الانشطة على اقامة الصلوات وتلاوة الذكر تذكرا بمجاهدات المتصوفين الذين يحاولون تحرير نفوسهم من الضغوطات والاتحاد مع الذات الالهية. وربما اتخذ هذا السلوك بعدا اخلاقيا مثلها فرضته قداسة المكان وهو الجامع، اذ يقدر ما يكون التصوف تلقانيا في الزوايا يكون في الجوامع اكثر انضباطا.

استمرارية الزوايا

يعتبر ريف باب سويقة منطقة حضرية من تونس العاصمة، وهذا ما يدعو الى الاستغراب عندها نتعرف على مدى اهمية المكان التي تحظى بها ظاهرة الاولياء الصالحين والزوايا لدى الاهالي، فالصيرورة الحضرية تجعلنا في بادئ الامر نتصور حدة الصدام المحاصلة بين الهياكل الحديثة والهياكل التقليدية فتميز بانتماء المؤسسة الحديثة وتقهقر المؤسسة التقليدية نحو الزوال. لكننا لا نتخلص من وقع المفاجأة عندما تبدو لنا هذه المؤسسات التقليدية صامدة، وقارس ادوارها الاصلية بصفة اعتيادية في مجتمع حضري غالبا ما ناددت تياراته المتعددة بمحو السلفية او بادراجها ضمن مخلفات التراث. فرغم التطور الحضري الذي يعرفه الريف ورغم تطويق المدينة العصرية له، فان ظاهرة الاولياء بقيت تكتسي اهمية كبرى في الحياة الروحية والاجتماعية بالريف. قباب سويقة هو عبارة عن وسط شعبي، يتميز اهاليه بذهنية بسيطة وشعبية، تتعلق اكثر فاكثر بتقاليدها ومعتقداتها، مما يؤدي الى استمرارية المؤسسة التقليدية في بث اشعاعها على هذا الوسط الشعبي.

ان استمرارية الزوايا في الريف هو تعبير صريح عن حاجة "الشعبي" لتحقيق توازنه النفسي في كنف المعتقدات والعادات. لكن هل يعني هذا التعلق بالمعتقدات انه سيؤدي الى ظهور ظاهرة فريدة من نوعها تتمثل في تعايش الموزوت والميتكر؟ وهل ان ملامح الصراع الحاد الذي عهدناه بين ما هو سلفي وجديد قلت وتلاشت في الاوساط الشعبية؟

ان دراسة ظاهرة الاولياء والزوايا في ريف باب سويقة اثبتت لنا ان بعض مظاهر المحافظة والاصالة التي واكبت التطور الحضري قد حافظت على استمراريتهما لا كتراث تستمد منه الذكرى فحسب بل كهياكل تقليدية لا زالت تؤدي ادوارها الاصلية بصفة اعتيادية.

والملاحظ ان الهياكل التقليدية تؤدي وظيفتها في وفاق مع مع الهياكل الحديثة بدون ان تتسبب في إعاقة الادوار الموزعة داخل الوسط الحضري واحيانا تتسبب الفضاة التقليدية والزمن فيما بينها. ولعل تلك التلقائية التي اتسمت بها عقلية الاهالي بالاوساط الشعبية هي التي لم تبتد موقفا معاديا تجاه مختلف الهياكل سواء كانت عصرية او حديثة.

لكن هذا لا يجعلنا ننفي اضمحلال العديد من المؤسسات التقليدية امام المد الحضري المتواصل لريف باب سويقة وبطبيعة الحال فان مسألة الصراع بين الهياكل التقليدية والهياكل الحديثة تبقى قائمة الذات وهي تتجلى بوضوح في اشكاليات التحضر والتشاقف على مستوى العمران الحضري والثقافة الشعبية، لكن هذا الطرح يبقى غير معمم.

ببليوغرافيا:

- ابن خلدون عبد الرحمان. - المقدمة. - تونس: الدار التونسية للنشر، 1984.
- النبال محمد البهلي. - الحقيقة التاريخية للتصوف الاسلامي. - تونس: مكتبة النجاح للنشر والتوزيع، 1965.
- عبد الرزاق عبد الله. - اضاء على الطرق الصوفية في القارة الافريقية. - القاهرة، 1989.

BIBLIOGRAPHIE

- BEN ACHOUR Mohammed El Aziz. - Catégories de la Société Tunisienne dans la 2^{ème} moitié du 19^{ème} siècle. - Tunis : I.N.A.A., 1989.
- "Islam et contrôle social, à Tunis au 18^{ème} siècle in La ville arabe dans l'islam. - Tunis : CERES. - Paris : CNRS, 1982.
- BINOUS Jamila. - "Le Patrimoine monumentale de la Médina de Tunis" in Périodiques de l'A.S.M., sept 1972.
- BRUNSCHWIG Robert. - La Berbérie orientale sous les Hafside ; des origines à la fin du XV^{ème} siècle ; Tomes I 1940 ; Tome II 1947. - Paris : Adrien Maisonneuve
- CHERIF Mohammed El Hédi. - Pouvoir et Société dans la Tunisie de Hussein Ben Ali ; Tome I. - Tunis 1984.
- DAOULATI Abdelaziz. - Tunis sous les Hafside. - INAT. - Tunis 1976.
- DERMENGHEM Emile. - Le Culte des Saints dans l'Islam Maghrébin. - Paris : Editions Gallimard, 1954
- FERCHIOU Sophie. - "Survivances mystiques et culte de possession dans le maraboutisme tunisien". - juin/sep 1972.
- NADIR Ahmed. - "Le Maraboutisme : superstition ou révolution ?" in Cahiers de la Méditerranée, n° 14, Juin 1977

